شرح قصيدة لا تبكين على رسم ولا طلل

الشعر هو تجسيد حقيقي لحياة الإنسان وما يشعر به وما يأمله وما يألم منه، الشعر هو الكلمة الفصيحة التي تعبر عن دواخل النفس الأصيلة والعميقة، وما يأتي قصيدة لشاعر الأدب والفن أبي نواس في وصف الخمرة حين قال:

- **عُج لِلوُقوفِ عَلى راحٍ وَرَيحانِ**
  فَما الوُقوفُ عَلى الأَطلالِ مِن شاني
  لا تَبكِيَنَّ عَلى رَسمٍ وَلا طَلَلٍ
  وَاِقصِد عُقاراً كَعَينِ الديكِ نَدماني

الآن يبتدئ الشاعر أو قصيدته بثورة من شأنها أن تقلب الشعر العربي بأسره وتقلب الموازين كلها حيث إنه قال في متن كلامه أنّ ما فعله الناس قبلًا من الوقوف على الأطلال والبكاء والاستبكاء والحزن على ما مضى ليس من شأنه وهو لن يكون كذلك أبدًا فهو شاعر التجديد والرؤية الحديثة وبدلًا من ذلك فليقصد الإنسان مكانًا يستريح فيه.

- **سُلافُ دَنٍّ إذا ما الماءُ خالَطَها**
  فاحَت كَما فاحَ تُفّاحٌ بِلُبنانِ
  كَالمِسكِ إن بُزِلَت وَالسَبكِ إن سُكِبَت
  تَحكي إذا مُزِجَت إكليلَ مَرجانِ

الآن يأتي الشاعر بعد البيتين الأوليين للكلام عن شأنه بعد أن ذكر أنّ الأطلال ليست من شأنه فقال إنّ شأنه هو الخمرة العتيقة الخالصة من الشوائب فلمّا يرى برميل الخمير الخالص المعتق ويُصب له منه ويخلط الماء بالخمرة فإنّ رائحته تفوح كما تفوح رائحة التفاح الطازج في لبنان، ويبدو أنّ لبنان منذ ذلك الوقت هي شهيرة بثمرتها، وبعد ذلك يجود في وصف الخمرة فأكثر فيقول هي كالمسك في رائحتها بل إنّها كالذهب بل هي من المرجان إذا مزجت وصارت جاهزة للتناول.

- **صَهباءُ صافِيَةٌ عَذراءُ ناصِعَةٌ**
  لِلسُقمِ دافِعَةٌ مِن كَرمِ دِهقانِ
  كَرمٌ تَخالُ عَلى قُضبانِ نَخلَتِهِ
  يَومَ القِطافِ لَهُ هاماتِ حُبشانِ

الصهباء هو االسم من أسماء الخمرة المعروفة قبلًا ثم يتابع كلامه في غزل الصهباء فيقول إنّها صافية مثل صفاء العذراء في خدرها كأنّه لم يمسها بشر قبلًا، وهي بعد ذلك كله لا تترك في جسد الإنسان علة ولا مرض ولا سقم ولا أي شيء بل إنّها دافعة لكل ذلك بكل قوتها، حتى إنّ الرائي لها يوم القطاف وهو يقصد الآن قطاف العنب الذي يصنع الخمر منه ليأخذ الألباب وتتفتح له القلوب والنفوس.

- **لَم تَدنُ مِنها يَدٌ مُذ يَومِ قَطفَتِها**
  وَلَم تُعَذَّب بِتَدخينٍ وَنيرانِ
  حَتّى إذا عُقِرَت سالَت سُلالَتُها
  في قَعرِ مَعصَرَةٍ كَالعَندَمِ القاني

الآن يتابع أبو نواس كلامه في الحديث عن رقة الخمرة وجمالها وروعتها وحسنها وبهائها ويصف مراحل صنعها فلما قطف العنب من على شجره لم يمسه إنس قط بل حُفظ في مكانه لا تطاله يد الناس وهذا لفرط رقة المشروب وكأنه لا يحتمل أن تمتد إليه يد البشر، وهي على عكس غيرها من المسرات فلم تتعرض لا إلى دخان ولا إلى حرق ولا إلى غير ذلك مما يعكر صفو الإنسان، حتى إذا وضع العنب في مكان قعره وضُرب سال منه الشراب بصورة جمالية رائعة كما يسيل دم الغزال الأحمر القاتم الذي كانت تطبخه النساء قبلًا مع شيء من الزينة وتختضب فيه.

- **وَحَولَها حارِسٌ ذو صَلعَةٍ شَكِسٌ**
  عِلجٌ يَدورُ أَخو طِمرٍ وَتُبّانِ

في وصف صنع الخمرة ودقها وتعتيقها لا بدّ من الكلام عن عاصرها ويصف الشاعر أبي نواس عاصر الخمرة على أنّه رجل سيئ الخُلق غليظ الطلعة أصلعًا يلبس سروالًا يصل إلى ركبتيه وهو القائم على شأنها كله، وربما استعمل أبي نواس هذه الصورة عن عاصر الخمرة وكأنه استوحاها من صورة المردة الكبار أو الجان التي توصف في الحكايات التي تقزم على حراسة شيء عظيم فلا تدع أحدًا يقترب منه، وشأن ذلك الرجل مع الخمرة هو عين ذلك الشأن.

- **سَلسالَةُ الطَعمِ إِسفَنطٌ مُعَتَّقَةٌ**
  بِشُربِها قَيِّمُ الحانوتِ أَوصاني
  مَسحولَةٌ مُزَّةٌ كَالمِسكِ قَرقَفَةٌ
  تُطَيِّرُ الهَمَّ عَن حَيزومِ حَرّانِ

ثم يعود مرة أخرى للكلام عن طعم تلك الخمرة المعتقة التي مرت بكل تلك المراحل من القطف للاحتفاظ للتعتيق للحراسة وأخيرًا للشرب الذي يصف طعمه الشاعر وكأنّها الماء الزلال وهو ربما -أي الشاعر- لم يُقدم على شربها من رأسه بل إنّ صاحب الحانوت والقائم عليه هو مَن أغواه وسقاه، وللما شرب منها طار عقله من لبه وأزاحت عنه الغم والهم الذي يشعر به الإنسان فيُكدر صفوه ويؤرق عيشه، تلك هي الخمرة الجميلة في شعره.